تعقيب على محاضرة :

الأدب الهادف

للأستاذ عبدالرحمن سلامه العطار
المدرس بالأزهر

هذا عنوان محاضرة تفضل الكاتب القصصى الكبير « الأستاذ محمود تيمور » بإلقائها فى قاعة المحاضرات الكبرى بالأزهر ، وقد كان لى شرف الاستماع إلى هذه المحاضرة القيمة .

والأستاذ تيمور سليل أسرة أدبية عريقة ، لها على الأدب دالة ، وله بها جاه ، فمن حقه علينا أن نحسن الاستماع إلى حديثه ، وأن يأخذ رأيه موضع الاعتبار من نفوسنا ، فليس الأستاذ تيمور ممن يهمل لهم رأى أو يمر الناس عليه مر الكرام وحسبه أنه عضو بمجمع الخالدين .

فلا ضير عليه إذن أن نناقشه الرأى فيما نراه فى محاضرته من شطط عن الغاية وبعد عن القصد ، ما دام الهدف نبيلا وهو تمحيص الفكرة ، والوصول إلى الحقيقة :

وليست لنا أثارة من نقد على الأسلوب التيمورى فهو فريد فى بابه ، ينم عن ملكة راسخة ، واقتدار وإبداع .

بيد أن مأخذنا على المحاضر يحيط بفكرة المحاضرة كما يحيط بذلك الخيال الواسع الذى سبح به فى أفق الأدب ، وأطلق لنفسه فيه العنان ، وحاول جاهدا أن يوقع رأيه فى أذهان السامعين قضية ثابتة لا تقبل اعتراضا ولا تستهدف نقاشا لأنها مسلمة لاشية فيها ..

فلقد فسر لنا الأستاذ تيمور الأدب الهادف بما يسمونه « الواقعية الحديثة » وقد عنى بها أن يكون

الأديب صورة صادقة ، ومرآة عاكسة لآمال أمته ، وأمانيها وآلا يعنى بالمعانى النفسية الخاصة بالأديب والتى لاتتصل بواقع الحياة من قريب أو من بعيد ، وهذا كلام جميل وحسن إذا استطعنا أن نفصل آمال الفرد عن آمال أمته ، وهل الأمة إلا أفراد تشترك آلامهم ، وآمالهم اشتراكا وثيقا يتعذر معه على الأديب أن يقطع آماله عن آمال أمته ؟ ! ، والامر فى هذه هين على كل حال

ثم ضرب المحاضر مثلا بأحد كتاب الواقعية (فى رأيه) وهو الكاتب النرويجى (اميل زولا) وقال : (ان واقعية (زولا) تجلت فى مسرحيته الشهيرة (المرأة) وقد هدف زولا فى هذه المسرحية الى غرضين :

أولهما قد تحقق فى (أوربا) على أوسع نطاق وهو مساواة المرأة بالرجل فى جميع الحقوق ، وفى رأى المحاضر أن هذا الهدف من المسرحية قد انتهى أمره ، واستنفذ غرضه بوصول المرأة الى حقوقها

وبقى الهدف الثانى من المسرحية وهو عرض نفسى (خالد) يتعلق بخصائص المرأة « السيكلوجية » وسيظل باقيا ما بقيت الدنيا » .

وما كان أغنى الأستاذ تيمور عن (زولا) ومسرحيته فإن أدبنا العربى قديما وحديثا مشحون بهذه الواقعية مذخور بالحديث عن كل خصائص المرأة .

على أن المحاضر يناقض نفسه حين يدعى أن الحديث عن هذا اللون الأدبى النفسى من الواقعية الحديثة : ولئن صح أن يكون منها فمن الإجحاف أن نقول : إن الواقعية شىء جديد على الأدب العربى ، وأن نبشر بها كمبدأ جديد .

وهذه هنة أخرى جار فيها المحاضر على تراثنا الأدبى ، وألحق به نقصا هو منه براء .

ثم ماذا فى (رباعيات الخيام وشعر عنترة العبسى مما لا يمثل الواقعية ؟!!

الحق أن الأستاذ تيمور أخطأه التوفيق حين استدل بهما على الأدب الهاتف (على حد تعبيره) وتأبى أن يعتبرها من الأدب الهادف ..

ومن الخير أن أنقل هنا رأى الأستاذ الكبير (العقاد) فى رباعيات

الخيام) لأضعه أمام الأستاذ تيمور كرأى له أهميته واعتباره قال الأستاذ « العقاد » « يمتاز باتساع الصدى فى الغرب كله من القارة الأوربية إلى القارة الأمريكية ، ولا يضارعه فى سعة انتشاره كتاب مثله من تأليف الشرقيين أو تأليف الغربيين ذلك الكتاب هو رباعيات الخيام) .[1]

ويقول فى موطن آخر من المقال « وقد تلقاه الغرب كما يتلقى الوحى المنزل وبلغت النسخ المطبوعة منه الملايين فى اللغات المتعددة ، وقد غالى بعضهم بنسخته من الرباعيات فنقش كل صفحة منها نقشة فنية محتفلا بصناعتها ، ورصعها بالجواهر الملونة وعدها من الذخائر النفيسة التى لا يفرط فيها من يقتنيها » ثم يقول « إنها تعد من الكتب المعبرة عن زمانها » ثم يتحدث عن شهرته فيقول : (ويقاس رواج هذا الكتاب بمقاييس شتى يكفينا منها فى هذا المقام اسم الجنرال عمر براد لى الأمريكى فإنه مسمى على اسم عمر الخيام) هذا هو مدى اهتمام الغربيين ومنهم كتاب الواقعية المزعومة بمؤلف شرقى ، فماذا عسى أن يكون اهتمام الشرقيين به ؟ !!

لاشىء إلا أن يقول عنه الأستاذ تيمور (إنه من الأدب الهاتف) .

وشعر عنترة العبسى ماذا دهاه هو الآخر حتى نهجنه اليوم ؟ !!

إن شعر العبسى يمثل تمثيلا صادقا واقع الحياة فى عصره ، فهو كغيره من شعراء الجاهلية يبدأ قصائده بالحديث عن الديار والأطلال ، والرياح والأنواء التى طمست معالم ديار الأحبة ، وعفت عليها ، ويتبع ذلك بالحديث عمن تعلق بها قلبه ، فيذكر محاسنها ، ومفاتنها ثم يرشح نفسه للتأهل منها ذاكرا مسوغات ترشيحه من شجاعة ، وفروسية ، وبلاء فى الحروب ، وعراقة فى الحسب والنسب مشيدا بمفاخر قومه ومآثرهم على غيرهم من القبائل ، وما يتصفون به من كرم المحتد وحسن الجوار ، وهل حياة العربى فى الجاهلية شىء وراء هذا ؟ !!

---

(١) من مقال للعقاد منشور فى العدد الثانى من السنة الثانية من مجلة الإسلام والتصوف .

ومما يستجيش لواعج الأسى فى النفس ، ويبعث على الاسف والحسرة أن يقول المحاضر : «إن على الاديب الهادف أن يناجى الشيطان كما يناجى الملائكة» ، وأن يكون صادقا فى تعبيره عن ناحيتى الخير والشر) فهل يعنى سيادته ألا يكون الاديب هادفا إلا إذا انغمس فى الشرور ونهل منها وعل ، وأخذ يعبر عنها تعبيرا صادقاً هادفاً ! !

وما معنى كلمـــة هادف فى هذا الموطن ؟! هل يهدف من وراء تعبيره عن الشرور إلى إغراء الشباب ، ودفعهم إلى أن ينهزوا منها ما شاءوا حتى يكون أدبه هادفا ! وما رأى الاستاذ تيمور فيما ينشر فى بعض الصحف الرخيصة أو يمثـــل على المسرح ، او يعرض فى دور الخيالة أو تشدو به المغنيات فى الإذاعة مما يستثير الغرائز الجنسية ، ويدفع إلى الشرور ، ويبعث على التحلل ، أهذا هو الأدب الهادف ؟ ! !

وهل الحديث عن طلاق شادية ، أو وضع أميرة مونا كو ، أو عيون مارلين مونرو . أو عن مسابقات الجمال من الادب الهادف ؟ ! !

وما هو الأدب الهاتف أو النافه إذا لم يكن هذا أدبا هاتفا نافها ؟ ! !

ثم ما رأيه فيما ينشر فى الصحف مما يطلقون عليه شعرا واقعيا ، وقد خلا من كل جرس ، ولحن ، وليست فيه أثارة من وزن أو قافية ولا يتضمن معنى كريما ، ولا خيالا واسعا وهو إلى الهزل أقرب منه إلى الجد ، ولكنه يجد مروجين يتحدثون عنه كما يجد صحفا تفتح صدرها لاستقباله وتنشره بخطوط عريضة ، وتزينه بصور معبرة تحتل جزءا ضخما من فضاء الصحيفة هل هذا هو الأدب الهادف ؟ ! !

أم إن الأدب الهادف شيء آخر أسمى من هذا ؟ ! !

نحن نفهم أن يكون الأديب واقعيا وهادفا إذا عالج بقلمه مشروعات الإصلاح فى بلده ، وأشاد بمفاخر قومه وأمجادهم ، وتغنى بما تحقق لوطنه من اصلاح فى الداخل والخارج وفاخر بالوثبات القوية التى يثبها بنو وطنه نحو الصعود ، وأن يسهم بقلمه فى أحداث قومه وأن يخلق فى قارئيه

وعيا ساميا . وحاسة ملهمة وأن يقودهم إلى مثالية سامية. حتى يكون قلبه نبراسا يستضاء به ، اومصباحا كاشفا لما إنبهم عليهم من الأمور وادلهم من الخطوب . وبهذا يسهم الأدب بطريق مباشر فى خلق النهضات ، وبعث الوثبات . هذا هو الأدب الهادف فى نظرنا ، وهو الواقعية الحديثة إن كان لابد من تسميته واقعية حديثة لأن هذا فى رأينا شأن الأدب فى كل عصور التاريخ .

أما أن تتخذ كلمة « الهادف » ذريعة للتفاهات التى تنشر على الناس باسم الأدب الواقع أو الصاعد فهذا مالايقبله منطق الأدب ولا يستسيغه ذوق الأديب .

على أن مفهوم الأدب أوسع من هذا كله .

والأدب المرموق هو الذى يتسع صدره للواقعية والرومانية على سواء ، وأن يكون واسع الأفق محيطا بقضايا المجتمع الذى يعيش فيه ، مسهما فى علاجها على خطط مرسومه ، ومناهج محددة المعالم . واضحة الغاية وأن تكون صوره إلى جانب هذا متسعا لحقائق العلم ومدركات الحس ، وهواجس النفس ، ذا ملكة راسخة يستطيع التعبير بها عن ذلك كله بلا حدود ، ولا قيود .

بقى أن أصارح الأستاذ تيمور بأننا مشغوفون بالاستماع إليه ونود أن ننصت إليه مرات أخرى يكون فيها أكثر توفيقا وأوضح غرضا . فإننا نعده فى سماء الأدب قمرا منيرا ، وللقمر كلف قد يحجب ضوءه فى بعض الأحيان ، ولكنه البدر على كل حال مبعث إشراق ، ووحى إلهام .

عبد الرحمن سلامه العطار
المدرس بالأزهر